



من الجريد إلى لعب البارود

صفحات من تاريخ الفانطازيا في الكتابات الفرنسية

مبروك بو طقوقة

باحث بجامعة مستغانم

ملخص-

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على ظاهرة الفانطازيا (لعب البارود) وتطورها من خلال النش في ما كتب عنها من طرف الفرنسيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، هذه المقاربة أملاها غياب وثائق عربية تؤرخ للظاهرة نتيجة لأسباب تاريخية عديدة، ورغم أن الكتابات الفرنسية التي اطلعنا عليها بها لا ترقى إلى مرتبة الخطاب العلمي الأكاديمي المختص لأنها كتبت بيد رحالة أو دبلوماسيين أو صحافيين أو حتى عسكريين، إلا أنه يمكن الاستفادة منها بعد وضعها تحت مجهر النقد والتمحيص والتصويب، وهو ما وضعناه قيد الفعل لنتتبع التطورات التي مرت بها لعبة الفانطازيا انطلاقا من محاكاة حربية لتقنية الكر والفر مروراً إلى لعبة الجريد التي تعتبر نوعاً من الفانطازيا البدائية إلى غاية استخدام بنادق البارود الذي شكل نقلة نوعية في اللعبة من خلال الإضافات البصرية والسمعية التي أضافها لها، لنخرج في الأخير بمجموعة من الخلاصات التي توصلنا إليها.

From “El jerid” to gunpowder game Pages of history of “Fantasia” in French literature

Abstract -

This research paper is seeking to spotlight the phenomenon of Fantasia (gunpowder game) and its evolution through a deep research of what has been written about it by the French in the eighteenth and nineteenth century. Due to some historical reasons and the absence of documents written in Arabic language

chronicling the phenomenon this approach is born. Even the french literature we saw was not a scientific or academic discourse because it was written by travellers or diplomats or journalists or even militaries, we still can take profit of it after criticizing and reviewing it to follow the development of this game starting from "El Karr wa El Farr" till the use of gunpowder that take this game to the next level through additional audios and visuals, to come up with some conclusions.

Du "El Herid" au "Jeu de la poudre" Pages d'histoire de la "Fantasia" dans les écrits français

Résumé-

Ce document cherche à mettre en lumière le phénomène de la « Fantasia » (jeu de la poudre) et son évolution à travers une recherche approfondie de ce qui a été écrit à ce sujet par les Français au XVIII^e et XIX^e siècle. C'est en raison de certaines conséquences historiques et l'absence de documents écrits en langue arabe relatant le phénomène que cette approche est née.

Même si la littérature française que nous avons consultée n'était pas un discours scientifique

académique spécialisé parce qu'elle était écrite par des voyageurs ou des diplomates ou des journalistes ou même des militaires, nous pouvons toujours tirer profit de celle-ci après l'avoir critiquée et révisée pour suivre le développement de ce jeu à partir de "El Karr wa El Farr" jusqu'à l'utilisation de la poudre qui prennent ce jeu à un niveau supérieur par le biais des suppléments auditives et visuelles, pour –à la fin– tirer quelques conclusions.

مقدمة -

رغم أن كلمة فانتازيا Fantasia توجد في كل لغات البحر الأبيض المتوسط إلا أنها اشتهرت وشاع استعمالها في اللغة الفرنسية بمعنى محدد وهو استعراض الفروسية¹ Parade équestre الذي يقوم به العرب أو سكان شمال إفريقيا وهو المعنى الذي أصبح مرتبطاً بهذه الكلمة في اللهجات المحلية لسكان المغرب العربي.

يرى جون بيار ديقار (Jean-pierre Digard) أن الفروسية في شمال إفريقيا

¹. Louis-Nicolas Bescherelle. Dictionnaire National Ou Grand Dictionnaire Classique De La Langue Française, Paris, 1845, tome I, p. 1231.

هي فروسية ذات منشأ عربي- تركي- نوميدي وأن الفانطازيا هي النسخة الحلوة المعاصرة لها¹، فنحن أمام ظاهرة متشعبة شاركت في إنتاجها وتطويرها ثلاث اتجاهات فروسية كبرى عبر القرون وهي النوميديّة والعربيّة والتركيّة.

وبما أنه لا يمكن فهم ظاهرة الفانطازيا دون الغوص بعيدا في البدايات الأولى لتشكلها ومعرفة التغيرات العديدة التي مستها وفي ظل غياب وثائق عربية تؤرخ للظاهرة وجدنا أنفسنا مجبرين على النبش في الكتابات الفرنسية بدءا من القرن السابع عشر من أجل رسم صورة متكاملة لتطور الفانطازيا، وورغم أن هذه الكتابات لا ترقى إلى مرتبة الخطاب العلمي الأكاديمي المختص لأنها كتبت بيد رحالة أو دبلوماسيين أو صحافيين أو حتى عسكريين وفيها بجانب الإنبهار والإفتتان الكثير من الإستغراب بل وحتى الإستهجان ووصف الجزائري والعربي بالهمجي والعنيف المتعطش للعنف والحروب حتى في جانب لهوه واحتفالاته، إلا أنه يمكن الإستفادة منها بعد وضعها تحت مجهر النقد والتمحيص والتصويب.

الجريد: فانطازيا بدائية

لا نعرف بالتحديد متى بدأت الفانطازيا، لكننا نعرف بالتأكيد أنها انبثقت من التقنيات الحربية التي كان يستخدمها العرب والنوميديون والتي تعتمد على الهجوم المباغت والإنسحاب السريع أو ما يعرف باسم "الكر والفر". ومن المرجح أن يكون العرب قد مارسوا نوعا من الفانطازيا منذ أن طوروا تقنيات الحرب باستخدام الخيل² وكذلك النوميديون³ لأن الفانطازيا في حقيقتها ما هي إلا نوع من التدريب العسكري للفرسان بما يسمح لهم بتطوير مهاراتهم القتالية والرفع من قدراتهم الحربية كما يسمح للقادة باكتشاف أمهر الفرسان وأشد المحاربين وأفضل الخيول وبالتالي التقييم الصحيح لقوة جيوشهم وجاهزيتها.

تمارس الفانطازيا في وقتنا الحالي باستخدام بنادق البارود ولكن قبل اختراع

¹. [Carlos Pereira](#). Parler aux chevaux autrement, Amphora, France, 2009, p. 16.

². Azeddine Sedrati, Roger Tavernier, Bernard Wallet. L'art de la fantasia: cavaliers et chevaux du Maroc. Plume. France. 1997. p. 41.

³. [Carlos Pereira](#). op. cit., p. 16.

بنادق البارود فإنها دون شك كانت تمارس باستخدام الرماح والسيوف والسهام، وهي الأسلحة التي كانت متوفرة في ذلك الزمان وهو ما جعلنا نغوص في التاريخ بحثاً عن التظاهرات الأولى لهذه اللعبة التقليدية التي أطلقت عليها تسميات عديدة قبل استخدام مصطلح الفانطازيا منها "لعبة الخيل" و"لعبة البارود"¹.

يجد المتصفح للكتابات الفرنسية التي تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي وصفا للعبة تشبه الفانطازيا إلى حد كبير بحيث يمكن اعتبارها شكلا من أشكال الفانطازيا البدائية، ومن المؤكد أن الأتراك هم من أدخل هذه اللعبة إلى الشمال الإفريقي ويطلق عليها اسم "لعبة الجريد" و "لعبة القصب" و "لعبة الميدان" ونجدها في الكتابات الفرنسية تحت عدة مسميات منها *Gérid, Djérid, Djirid, Meidan, Jeu des cannes*².

وقد ورد مصطلح الجريد في القواميس والمعاجم الفرنسية للدلالة على "لعبة عربية يتم فيها رمي رمح خشبي من على ظهر الحصان"³، ويبدو أن اللعبة قد استمدت اسمها من "جريد النخل" أي أغصانه التي كانت تصنع منها الرماح أو العصي الطويلة التي كانت تستخدم في هذه اللعبة وهذا ما نجده في تعريف كلمة "جريد" في قاموس "القاموس التأثيلي للكلمات الفرنسية ذات الأصل العربي" : "عصا طويلة ومستقيمة خالية من الحديد، يستخدمها الفرسان العرب أو الأتراك لرمي بعضهم بعضا ثم يقومون بالتقاطها بواسطة عصا معقوفة تسمى "جوكان"⁴.

ويصف ويليام ديكيت (William Duckett) في "قاموس المحادثة القراء" عصا الجريد فيقول "ويبلغ طولها حوالي المتر الواحد و يتراوح تقوسها بين 32 سم إلى 40 سم وهذه العصا هي الجزء الرئيسي في تمرين أو لعبة واسعة

1. [Auguste Margueritte](#). Chasses de l'Algérie et notes sur les Arabes du sud, 2ème ed., Furne, Jouvet et Cie., 1869, p. 276.

2. [Louis Chénier](#). Révolutions de l'empire ottoman, et observations sur ses progrès, sur ses reveers, Chenier et bailier, Paris, 1787, p. 319.

3. François Raymond. Dictionnaire des termes appropriés aux arts et aux sciences, Masson et fils, Paris, 1824, p. 258.

Voir aussi : Académie française. Supplément au Dictionnaire de l'Académie, Volume 3, Ed. Masson et fils, Paris, 1827, p. 258.

4. [Antoine-Paulin Pihan](#). Dictionnaire étymologique des mots de la langue française dérivés de l'arabe, du persan ou du turc, avec leurs analogues grecs, latins, espagnols, portugais et italiens, Impr. impériale, 1866, p. 143.

الإنتشار في تركيا ومصر وكل الدول البربرية والعربية وبلاد فارس"¹.
ومن كلامه يتضح أن لعبة الجريد كان تلعب في كامل العالم العربي والأراضي العثمانية وهو ما يؤكد فرديريك أوغست أثناء حديثه عن لعبة الجريد في عند العرب حين يقول " هي نوع من الفانطازيا يطارد فيه الفرسان بعضهم بسرعة فائقة ويرمون بعضهم بعضا برماح خشبية غير حادة"².
ويشير جون فليسيسيم أدري (Jean-Félicissime Adry) في قاموسه حول "ألعاب الطفولة والشباب عند كل الشعوب" إلى الجريد باعتباره لعبة وتمرينا في نفس الوقت، يستخدم لتدريب الشبان على الفروسية ويستخدم في الوقت ذاته لتدريب خيولهم على الحرب، وهو لعبة منتشرة جدا عند الأتراك والمور (السكان المحليين لشمال إفريقيا) وعنهم أخذ الإسبان"³.
وتقام هذه اللعبة عادة على شاطئ البحر ويرافقها العزف على المزمار وضرب الدفوف وإطلاق الزغاريد منذ البداية إلى النهاية دون توقف⁴.
وأقدم وصف لهذه اللعبة يعود إلى القرن السابع عشر وبالضبط في 10 جوان 1660 أورده لوران تدارفيو (Laurent d' Arvieux) في كتابه "مذكرات فارس أرفيو" الصادر سنة 1735⁵.

يشرح لوران لعبة الجريد قائلا: " ينقسم الفرسان إلى قسمين، يجعلان بينهما فضاء كبيرا ينطلقون فيه على ظهور خيولهم بسرعة فائقة، مطاردين بعضهم البعض، وما إن يدرك أحد الفرسان فارسا معاديا ويصير على مسافة قريبة منه حتى يقوم برمي ظهره بواسطة العصا التي يمسكها بيمنه لأن رمي الجزء الأمامي من الجسم ممنوع. إنها لمتعة كبيرة أن ترى كيف يقومون بالإستدارة بمهارة فائقة قصد تفادي الضربة، وكيف يقومون بالوقوف على الركاب (ركاب السرج) القصيرة جدا من أجل أن يرموا العصي بقوة أشد،

¹. [William Duckett](#), Dictionnaire de la conversation et de la lecture: inventaire raisonné des notions générale les plus indispensable à tous, Volume 7, 2^{ème} Ed., Imp "Aux comptoirs de la direction", 1854, p. 696.

². [Frédéric-Auguste-Antoine Goupil](#), Voyage d'Horace Vernet en Orient, T2, Société Typographique Belge, 1844, p. 30.

³. Adry, Jean-Félicissime. Dictionnaire des jeux de l'enfance et de la jeunesse chez tous les peuples. H. Barbou, Paris, 1807, p. 132.

⁴. Idem, p. 134.

⁵. [Laurent d' Arvieux](#), [Labat](#), Memoires du chevalier d'Arvieux, Ed. Charles Jean-Baptiste Delespine le Fils (Paris), Volume 2, 1735, pp. 325-329.

وحيث يرموا عصيهم فإنهم يقومون بالتقاطها من الأرض دون أن ينزلوا من فوق أحصنتهم، وذلك بأن ينحنوا على السرج ويقومون بأخذها من الوسط بواسطة عصا أخرى معقوفة، في حين يقوم البعض الآخر بإبقاء رجل واحدة فقط على السرج والنزول بالرجل الأخرى على الأرض لالتقاط العصا باستخدام إحدى اليدين، بينما يمسكون لجام الحصان باليد الأخرى وكل ذلك بمهارة فائقة مدهشة والحصان يركض بلا توقف، بل إن بعضهم يستطيع الدوران بخفة كبيرة لإمساك العصا التي رميت تجاهه أو يقوم بردها باستخدام عصاه الخاصة. ورغم مهارات الفرسان الفائقة إلا أنه نادرا ما ينتهي هذا التمرين دون إصابة أحد بجروح أو ببعض الكدمات¹.

ويواصل الحديث عن أمور متعلقة بهذا التمرين مثل تقديم هدايا للمجروح من طرف من جرحه كما يتحدث عن اشتراك الباشا في هذا التمرين وقيام منافسيه بالخسارة أمامه عمدا أو رميه بعماماتهم بدل عصيهم كنوع من التبجيل ثم يقول: "هذه اللعبة هي اللعبة الأساسية والترفيه العادي للفرسان، ويستخدم لاستقبال الشخصيات المهمة ومبعوثي السلطان الأكبر"².

ويضيف أن اللعبة تستمر لأكثر من ثلاث ساعات دون توقف بحيث تتصبب فيها أجساد الخيول عرقا غزيرا نتيجة الإجهاد الكبير الذي تعانيه وتتغطى بالأتربة نتيجة للغبار الكثيف المتطاير في كل مكان، كما يتحدث عن أنغام الدفوف والمزامير التي لا تنقطع منذ بداية اللعبة إلى نهايتها، ويخلص في الأخير إلى أن هذا التمرين هو الذي يدرب الشباب على الحرب، ففيه يتعلمون كيفية التحكم الجيد في الحصان، والمبارزة بمهارة والمتابعة والمطاردة والإنسحاب وكذلك التدريب على استعمال الأسلحة البيضاء على وجه الخصوص³.

والمرجح أن لوران تدارفيو لم يشاهد إلا نوعا واحدا من لعبة الجريد لأن الرحالة وصفوا طريقة أخرى للعب الجريد ينقسم فيها الفرسان المشاركون في اللعبة إلى قسمين متنافسين ويستخدمون رماحا مصنوعة من القصب يتراوح طولها ما بين المتر والتمترين يطلق عليها اسم "الجريد" وينطلق فارس من أحد الفريقين حاملا

¹. Idem. p. 326.

². Idem. p. 327.

³. Idem. p. 328.

رمح الجريد بطريقة أفقية ويهاجم الفريق المنافس وحين يقطع مسافة مناسبة تكون عادة أكثر من ثلثي المسافة الفاصلة بين الفريقين يرمي أحد الفرسان المنافسين محاولاً إصابته بجريده، ثم يوقف حصانه فجأة وينعطف راجعاً إلى فريقه، وعلى الفارس الذي تمت مهاجمته أن يحاول تجنب الإصابة باستخدام جريده ثم ينطلق في مطاردة الفارس الذي هاجمه محاولاً اللحاق به وإصابته في الظهر إن أمكن قبل أن ينعطف هو أيضاً فجأة ثم يسعى إلى الرجوع إلى فريقه بأسرع وقت ممكن، والسرعة هنا عامل حاسم لأنه ستتم مطاردته هو أيضاً بمجرد إطلاقه لجريده بإتجاه أحد الفرسان الآخرين وهكذا يستمر الفريقان في "كروفر" متتابعين، والخاسر هو ذلك الفارس الذي يصيبه الجريد في ظهره بل إنه عار كبير وفريقه عكس الإصابة في الوجه أو الصدر التي تعتبر دليلاً على الشجاعة و مصدراً للفخر ومن هنا فالفرسان الماهر هو ذلك الذي يهاجم بسرعة وينسحب بسرعة أكبر تجنباً للإصابة في ظهره، ومن هنا يتضح جلياً أن عملية "الكر والفر" كتقنية قتالية هي جوهر اللعبة وروحها¹.

وفي طريقة أخرى ذكر أن طريقة اللعب تتمثل في "قيام الفرسان برمي عصا الجريد بعيداً بقوة وتتمثل مهارتهم في الركض بسرعة على ظهور أحصنتهم وإمساكها - أي العصا - قبل أن تسقط على الأرض مرة ومثنى وثلاث"².

من لعب الجريد إلى لعب البارود

ومما لا شك فيه أنه بوصول بنادق البارود إلى الشمال الإفريقي تطورت الفانطازيا أيضاً بما يواكب العصر فحلت البنادق مكان رماح الجريد مما أعطى للفانطازيا روحاً جديدة وطعماً فريداً لما حملته البارود من إضافات بصرية وسمعية وشمية ساهمت في زيادة متعتها وانتشار شهرتها حتى أطلق عليها اسم "لعب البارود" للدور المركزي الذي أصبح يلعبه في هذه اللعبة.

أقدم وصف مكتوب لألعاب الفانطازيا باستخدام البارود وصل إلينا يعود إلى سنة 1787 بواسطة الفرنسي لويس دو شينييه (Louis de Chenier) في كتابه "بحوث تاريخية حول المور وتاريخ إمبراطورية المغرب"، وذلك في معرض حديثه عن الترفيه الوحيد الذي يمارسه السكان المحليون تحت اسم

¹. Antoine Laurent Castellan. Lettres sur la Morée: l'Hellespont et Constantinople, Volume 2, Ed. Nepveu, 1820, 2ème édition, pp 153-155.

². William Duckett. Op. cit., p. 696.

"لعب البارود" "jouer à la poudre" في كل مناسباتهم وأفراحهم، ويصف "شينبي" لعب البارود قائلاً:

"الترفيه الوحيد الذي نصادفه سواء في المدن حيث يتواجد الجنود أو في البادية هو ما يطلق عليه المور "لعب البارود"، وهو تمرين عسكري يحظى بحب الأهالي الذين يعتبرون جميعاً بفضل تكوين حكومتهم جنوداً أو في طريقهم إلى أن يصبحوا كذلك، لذا نجدهم جميعاً يمتلكون الأسلحة والخيول، إنه من خلال إطلاق البارود يظهر الفرح في الاحتفالات العامة أو الخاصة. يتم تقسيم كتيبة من الفرسان إلى قسمين يتموقعان على مسافة معينة، ويدخلان في منافسة البعض تلو البعض، بمعدل أربعة فأربعة حيث يقومون بتفريغ شحنات البارود من البنادق. إن الفن الكامل لهذا التمرين يتمثل في دفع الحصان عدواً إلى أقرب نقطة ممكنة من الجهة المنافسة ثم إيقافه فجأة لمدة صغيرة يتم فيها تفريغ شحنة البارود والاستدارة والقيام بشحن البنادق والعودة مرة أخرى لتفريغها، في حين يقوم الطرف المنافس بنفس المناورات، يحب المور كثيراً هذا اللهو الذي ما هو إلا محاكاة لتطوراتهم العسكرية"¹.

كما يصف دي شينبييه أحد الفرسان الذي يحمل ثلاث بنادق الأولى في يده والثانية أمامه على السرج والثالثة فوق رأسه حيث يقوم بإطلاق البارود من البندقية الأولى في بداية الجولة ثم يناولها لأحد الفرسان الذي يجري بجانبه بعدها يطلق البارود من البندقية الثانية ثم يناولها لنفس الفارس ثم يطلق البارود من البندقية الثالثة قبل نهاية المسار المخصص للعب وكل ذلك في وقت قصير جداً مما يبين المهارة العالية التي وصل إليها فرسان ذلك الزمان"². وهناك وصف يعود إلى سنة 1785 للفرنسي جان لويس ماري بواريه (Jeanlouis marie poirot) من خلال مجموعة من الرسائل أرسلها لأصدقائه يصف فيها رحلاته في الجزائر وتم طبعها سنة 1789 في كتاب تحت عنوان "رحلة في بلاد البرابرة" أي بعد سنتين من صدور كتاب لويس دو شانييه.

يصف بواريه الفانطازيا في الرسالة رقم 27 التي كتبها لصديقه الطبيب

¹. Louis de Chenier. Recherches historiques sur les maures, et histoire de l'empire de maroc, Chez l'auteur, Paris, Vol 3, 1787, p. 203.

². idem, p. 204.

وفيها يحكي عن رحلة قادته رفقة حاكم القالة آنذاك لزيارة علي باي الذي كان بايا على منطقة مازول "mazoule" غرب القالة وكان أن أقام هذا الأخير إحتفالا بمتاسبة تحرير نسائه وأولاده الذين كانوا محتجزين لدى باي قسطينة لأنه لم يدفع الضرائب المستحقة عليه.

و يذكر بواريه أن الباي إستقبلهم بمئات الفرسان وفرقة موسيقية تعزف القصبة والبندير حيث تم تنظيم إستعراض مذهش للفرسان وسط أنغام الموسيقى وصياح الفرسان وحمهمات الخيول¹.

وتلعب الفانطازيا بطرق عديدة فأحيانا "ينطلق الفرسان مثنى مثنى، القدم عند القدم، وعند منتصف الطريق يطلقون البارود ثم يعودون إلى نقطة الإنطلاق، ويتابع الفرسان وراء الفرسان، ويحمى الإحتفال ويتزايد إطلاق البارود، ويتحمس فرسان القوم فيقوم بعضهم بالوقوف على السرج وينام البعض الآخر على بطن الحصان، ويتم إلقاء البنادق الطويلة عاليا في الهواء وإعادة إلتقاطها بمهارة، وتصل الفانطازيا إلى ذروتها والويل للفارس الذي يسقط عن حصانه لأن ألفا وخمسمائة من الفرسان سيدوسونه تحت سنابل خيلهم بلا رحمة، وعلى كل فلا وجود لفانطازيا جيدة دون بعض الجرحى أو القتلى"².

"أحيانا تصبح الفانطازيا تمثيلية لحرب صغيرة، إذ ينقسم الفرسان القوم إلى قسمين يذهب كل منهما في إلى إحدى الجهتين في نفس الوقت ثم ينطلقان ويلتقيان في وسط الميدان ويطلقون البارود ثم يعودون كما شرحنا سابقا، هذه الطريقة في الفانطازيا هي إختراع فرنسي... وهذه الطريقة هي الأكثر خطورة لأن الفارس الذي يفقد التحكم في حصانه سيكون مصيره السحق"³.

أما أكاديميا فأول ورود لوصف الفانطازيا يعود لسنة و بالضبط في الموسوعة البريطانية في مادة (Morocco) وفي الجزء المخصص للترفيه عند المور (سكان شمال إفريقيا) تحت عنوان « Their amusement » تذكر

¹. Jean louis marie poiret .Voyage en Barbarie, ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786, Chez J.B.F. Née de la Rochelle, 1789, pp. 184,185.

². Florian Pharaon. Spahis, turcos et gnomiers, Ed. Challamel Ainé, 1864, p 247.

³. Idem, p248.

الموسوعة أن الترفيه المشترك بين كل المور سواء سكان المدن أو سكان البادية هو "لعب البارود" ثم تنقل حرفيا عن كتاب لويس دو شينييه الذي ذكرناه سابقا كيفية ممارسة هذه اللعبة لتنتقل بعدها للحديث عن الحصان وكيفية العناية به عند المور¹.

في كل مكان وفي كل المناسبات

لعل أكبر دليل على الأهمية الكبرى للفانطاظيا لدى شعوب تلك الحقبة هو أمران:

الأول: الإنتشار الواسع للعبة في كل أقطار الشمال الإفريقي بدءا من مصر إلى غاية المغرب دون استثناء مناطق الصحراء الإفريقية، فمثلا في مصر ذكربول ميرو (Paul Merruau) أن أحد أصدقائه الذين يثق في صدقهم أخبره أنه شاهد أكثر من 150 فارسا يمارسون الفانطاظيا قرب أحد القبور المقدسة عند المسلمين². والظاهر أن الأمر هنا يتعلق بإحدى المواسم أو الوعدات التي تقام عادة عند أضرحة الأولياء.

وفي تونس تحدث ليون ميشال (Léon Michel) عن فرسان الفانطاظيا ولباسهم البراق وخيولهم البربرية وسروجهم المذهبة وبنادقهم العاجية³ وفي النيجر ذكر لورنس ريفايله (Laurence Rivailé) أنه "في اليوم الثالث كانت الفانطاظيا نجاحا منقطع النظير، فقد قام أكبر البهلوانيين بأشجع العروض الخارقة على ظهور الجمال والخيول"⁴. وفي المغرب تحدثت نارسييس كوت (Narcisse Cotte) عن "فانطاظيا لم ترى مثلها أبدا"⁵.

الثاني : أن الفانطاظيا كانت تمارس في كل المناسبات الدينية والاجتماعية إظهارا للفرحة واحتفالا بالنجاحات الدينية والدنيوية فقد رأينا مثلا ما ذكره بواربيه عن احتفال علي باي بتحرير نسائه وأبنائه من باي قسنطينة بفانطاظيا

¹. Colin Macfarquhar et George Gleig, Encyclopædiabritannica, vol. 12, Edinburg, 1797, 3^e éd, p. 352.

². Merruau, Paul. Une excursion au canal de Sue, dans : Le tour du monde: nouveau journal des voyages, Volume 2, Librairie de L. Hachette, 1863, p 18.

³. [Léon Michel](#). Tunis : L'Orient Africain, P.A. Bourdier et cnies., 1867, p. 266.

⁴. [Laurence Rivailé](#) et autres. Contes et légendes touaregs du Niger: des hommes et des djinns, KARTHALA Editions, 1993, p 188.

⁵. [Narcisse Cotte](#). Le Maroc contemporain, Charpentier, 1860, p47.

كبيرة.

وهذا الأمر أكده فيليكسمورناند (Félix Mornand) في كتابه الشهير "الحياة العربية" حين يقول "لكن ترفيههم الوطني المفضل كما ذكرت سابقا هو الفانطازيا، وقد رأيت استخدامها في كل المناسبات: عند الزواج، عند الدفن، عند قدوم غريب، أو استقبال زعيم، وعند الرجوع من الصيد أو الحرب"¹.

كما ذكر ذلك جيراردو نارفال (Gérard de Nerval) أن الفانطازيا كانت تمارس عند استقبال الضيوف ويستشهد بما حدث له عند زيارة إحدى القبائل البدوية في صحراء الجيزة بمصر "ما إن يرى هؤلاء الناس غريبا يتجه نحو أرضهم حتى يسارعوا إلى استقباله بسرعة فوق ظهور أحصنتهم، ويؤدون أمامه فانطازيا سلمية يطلقون خلالها بعض الطلقات من مسدساتهم ليبينوا له أنهم في خدمته وأنهم مستعدون للدفاع عنه ضد الهجمات المباغتة التي قد يقوم بها بعض قطاع الطرق من البدو"².

أما فيكتور كولونيو (Colonieu Victor) فقد تحدث عن فانطازيا الإحتفال بعيد الفطر في مدينة متليلي قرب غرداية³.

الفانطازيا عند عقد اتفاقيات السلام بين القبائل : أوجان دوماس " وما إن يتم عقد اتفاق السلام حتى تقوم القبيلة المهاجمة بالإنسحاب لكنها قبل ذلك تقدم فانطازيا صاخبة تثب فيه الخيول ويطلق فيها البارود وتزغرد فيها النساء، إنها الفرحة والسعادة والبهجة"⁴.

وهناك أمر تجدر الإشارة إليه وهو "يحدث أحيانا أن يقوم بعض المتعصبين باستغلال الفانطازيا لاستبدال بارود بنذقيته بالرصاص وتحقيق ثأر شخصي، لكن هذا الأمر نادر الحدوث"⁵.

قد أدرك الفرنسيون غداة احتلالهم للجزائر الأهمية الكبيرة للفانطازيا

¹ Félix Mornand. La vie arabe, Ed. Michel Lévy., 1856, p72.

² [Gérard de Nerval](#). Voyage en Orient, Volume 1, Charpentier, 1851, p. 235.

³ Victor [Colonieu](#). « Voyage dans le Sahara algérien, de Gélyville à Ouargla » dans :Le tour du monde: nouveau journal des voyages, Volume 2, 1863, p. 197.

⁴ [Melchior Joseph Eugène Daumas](#). Les chevaux du Sahara: Augmentée de nombreux Documents par l'Emir Abd - el - Kader, 2ème Ed. Schiller aîné, 1853, p. 389.

⁵ [Florian Pharaon](#). Op. cit., p. 250.

فقاموا بإنشاء فرق من القوم (عساكر من السكان المحليين) مخصصة لل فانطاخيا وقد خصص فلوريون فرعون (Florian Pharaon) فصلا كاملا للحديث عن هذه الفرق تحت عنوان "قوم الفانطاخيا" في كتابه "صباحي، التيركوس والقوم" الصادر سنة 1864¹، وذكر أنها كانت تحت إدارة "المكاتب العربية" وتتكون من أمهر الفرسان الذين يرتدون حايك من الحرير وبرانيس نظيفة ويمتلكون أجمل الخيول في القبائل المسرحجة بأفضل السروج المطرزة والغطاءات المذهبة، وتتدرب هذه الفرق في ميادين خاصه تم إنشاؤها عند أبواب المدن ويتم استدعاؤها في احتفالات العرش أو لإحياء انتصارات كبرى أو لتحية القائد العام أو السواح من ذوي الشأن².

ولعل أكبر فانطاخيا في التاريخ هي تلك التي نظمت على شرف ملك فرنسا نابليون الثالث أثناء زيارته للجزائر سنة 1860 فقد ذكرت التقارير الصحفية أن تعداد الفرسان الذين شاركوا فيها وصل ما بين 9 آلاف إلى 10 آلاف فارس³.

ومنذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا لم يحدث تطور جوهري للفانطاخيا على الجانب الممارساتي والتغييرات التي تم إدخالها هي تغييرات ذات طابع تقني فقط لا غير أملتتها مستجدات معينة مثل نقص عدد الممارسين وقلة الأحصنة والقيود المفروضة على الأسلحة وغيرها من الأمور التي جعلت من يمارس الفانطاخيا يتكيف مع الضرورات الحياتية.

أما التغير الحقيقي الذي مس الفانطاخيا فهو في الجانب الاجتماعي والثقافي حيث لم تعد الفانطاخيا تحظ بنفس الحضور والأهمية لتتحول إلى مجرد ممارسة فلكلورية يتم إحياءها على استحياء في بعض المناسبات وفي أماكن قليلة لا يتعدى تأثيرها اللحظة التي تنتظم فيها دون أن يكون لها ذلك التأثير الأخلاقي والثقافي الذي يجعل من الفروسية نظام حياة يلتزم بمقتضاه الناس بقيم الحق والشجاعة والقوة التي تجعلهم يدافعون عن الضعيف ويغيثون الملهوف ويصابروا في سبيل الحق وربما ذلك مرده إلى ذوبان

¹. Idem, pp. 245-255.

². Idem. p. 247.

³. Édouard Dulaurier, Revue de l'Orient et de l'Algérie et de colonies: bulletin et actes de la Société orientale, t. 12, Paris, Société orientale, 1860, pp. 297,298.

هذه القيم البدوية في طوفان القيم الحضرية الجديدة التي تجعل من القيم المادية مثلاً أعلى.

تساؤلات

بعد استعراضنا لبعض ما كتب حول الفانطازيا في الجزائر - ما كتب كثير جداً - فإن أول تساؤل يتبادر إلى الذهان هو:

كيف نفسر كل هذا الإهتمام - في الكتابات الفرنسية- بظاهرة الفانطازيا والتي لا يكاد يخلو منها كتاب ولو بإشارة بسيطة؟

في رأينا أن هذا الإهتمام لم يكن بريئاً ولا اعتباطياً ولا مجرد سرد لذكرات عابرة عاشها هؤلاء الكتاب على أرض الجزائر، إن المتعمّن جيداً في هذه الكتابات يستشف من خلالها تلك المركزية الأوربية التي حاولت جعل الممارسات الثقافية للشعب الجزائري ميداناً لإظهار تفوق الأوربي حامل لواء الحضارة من التركيز على محورين:

- الغرائبية: التي هي في حقيقة الأمر إسقاط لرؤية (الذات . الانا) على موضوعية الحدث فالآخر غريب أي يمثل كل ما هو غير طبيعي وبدائي وشاذ

- الإستهجان: من خلال الربط بين الطبيعة الدموية للجزائري من جهة واحتفالات الفانطازيا من جهة ثانية من خلال التركيز على خطورة الفانطازيا والقتلى والجرحى الذين يصابون فيها ومظاهر الحرب والقتال التي تمثلها

ومن هنا جاءت هذه الكتابات في إطار الإستراتيجية التي اعتمدها المستعمر لإختراق المجال الجغرافي والثقافي للجزائري من أجل تفكيكه ومن ثم السيطرة عليه والتحكم فيه

خلاصات

والآن وبعد استعراضنا لتلك الكتابات والتمعن فيها جيداً يمكننا الخروج بمجموعة من الخلاصات التي تعطينا صورة شبه متكاملة عن الفانطازيا وتطورها وطرق ممارستها ومناسبات إحيائها في الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتي يمكن اختصارها في النقاط التالية:

• الفانطازيا طقس إحتفالي ترفيهي تطور أساساً كمحاكاة لتقنية عسكرية هي الكر والفر.

- عرفت الفانطازيا تطورا مستمرا من استخدام السيوف والرماح إلى الجريد إلى استخدام البارود.
- الفانطازيا هي خلاصة احتكاك وتداخل ثلاث مدارس فروسية كبرى هي: النوميدية والعربية والتركية
- كانت الفانطازيا ومشتقاتها هي الترفيه الرئيسي وأحيانا الوحيد لمجتمعات الشمال الإفريقي.
- كانت الفانطازيا منتشرة تقريبا في كل دول الشمال الإفريقي بدءا من مصر إلى غاية المغرب دون استثناء مناطق الصحراء الإفريقية.
- كانت الفانطازيا تستخدم في كل المناسبات الدينية والاجتماعية مثل الإحتفالات بالانتصارات وحفلات الزواج والختان واستقبال الضيوف المهمين والمواسم والوعادات وعند قبور الأولياء والصالحين والأعياد الدينية وكل احتفال من شأنه إظهار الفرحة والتعبير عن الإبتهاج.
- أن الفانطازيا كانت تلعب بطريقتين أساسيتين: الأولى ثنائية ينطلق فيها الفرسان مثنى مثنى وكلما انطلق فارسان وأطلقا البارود انطلق وراءهما فارسان آخران وهكذا دواليك، أما الثانية فهي جماعية حيث تنطلق مجموعة كبيرة من الفرسان في نفس الوقت وتطلق البارود في نفس اللحظة وهي نفس الطرق التي لا تزال تمارس بها الفانطازيا في وقتنا الحالي.
- أن طريقة ممارسة الفانطازيا لم تتغير كثيرا لكن أهميتها الاجتماعية وتأثيرها الأخلاقي والثقافي قد اضمحل مع مرور الوقت.